جعفر مرتضى العاملي

موقع ولاية الفقيه من نظرية الحكم في الإسلام

نظرة جديدة

جعفر مرتضى العاملي

موقع ولاية الفقيه من نظرية الحكم في الإسلام

نظرة جديدة

الكتـاب : موقع ولاية الفقيه من نظرية الحكم فى الاسلام

المؤلـف : السيد جعفر مرتضى العاملى

الناشـر : مؤسسة النشر الاسلامى التابعة لجماعة المدرسين ـ قم المشرفة

المطبوع: ٢٠٠٠ نسخة

التـاريخ: شهر رمضان المبارك ١٤٠٤ ، الموافق لـ : خرداد ١٣٦٣

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه أجمعين، محمد وآله الطيبين الطاهرين، واللعنة على أعدائهم أجمعين، إلى قيام يوم الدين.

وبعد...

فانني كنت قد كتبت حول موضوع ولاية الفقيه في صحيحة عمر بن حنظلة وتعرضت في المقدمة إلى موضوع ولاية الفقيه في دليلها العقلي والفطري... ولكن ما كتب

هناك لم يكن مستوفياً لجميع جوانب البحث ، لأنه كان يهدف إلى طرح المسألة من زاوية معينة ، تنسجم مع طبيعة ما اعتبرت مقدمّة له ، فأحببت طرح البحث هنا من جانب آخر ، مع التأكيد على ضرورة مراجعة ما كتب هناك ، لأن كلاً منهما متمم للآخر ، ومع الاشارة إلى أن ثمة جوانب أخرى لاتزال بحاجة إلى البحث والتمحيص، ولعلّنا نوفق لذلك في فرصة أخرى إن شاء الله تعالى .

(١٨/ جمادى الأولى /١٤٠٤ هـ . ق)
الموافق لـ :
(٥/١٢/١٣٦٢ هـ . ش) ـ قم ـ

جعفر مرتضى العاملى

بداية

قال الله تعالى في كتابه الكريم :

« إنما وليكم الله ورسوله ، والذين آمنوا ، الذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة وهم راكعون » (١) .

صدق الله العلي العظيم

لقد تعرضت هذه الآية الكريمة لولاية الله ورسوله ، وبعض المؤمنين الذين لهم مواصفات معينة من بعده ـ ولايتهم ـ على الناس ، وحكومتهم عليهم .

---

(١) المائدة / ٥٥ .

ولا نريد البحث في هذه الآية من ناحية تأريخية ، أو سياسية ، ولا من ناحية عقائدية و كلامية ، ولا من ناحية تفسيرية وإنما نريد أن نتعرف على موقع هذه الآية من النظرة الاسلامية فيما يتعلّق بالنظام والحكم الذي يجب أن يهيمن على كل شؤون ، ومجمل سلوك وحركات ، ويوجه مواقف الأمّة ، في حياتها ، وفي مسيرتها باتجاه الهدف ، الذي يهتم الاسلام بالتوجيه إليه ، ثم الوصول والحصول عليه .

ولا يهمنا كثيراً هنا التعرض للنظريات والطروحات المختلفة حول ماهية وشكل نظام الحكم . . . تلك النظريات التي جادت بها قرائح العلماء والمفكرين ، أو رضيها الناس لأنفسهم في فترة أو بأخرى ، أو فرضتها ظروف معينة ، مرت بها الأمم في العصور المختلفة . . . كالنظام الديمقراطي ، أي حكومة الشعب ـ كما يدعون ـ أو كحكومة العمال المزعومة ، أو كحكومة دكتاتورية الأقوى ، أو غير ذلك ، مما كان ولا يزال في أحيان كثيرة

يستخدم كشعار يرمي إلا إغـواء الناس ، وجرّهم وراء أولئك الطامحين والمستغلّين ، أو كان أحياناً أخرى عن قناعة واقعية ، لاتخفى وراءها أيّاً من المقاصد التي تدخل في هذا الاتجاه .

بل ربما نرى البعض يحاول أن يدعي : أنه ليس ثمة من حاجة لحكومة على الاطلاق .

لا ، لانريد التعرض لكل ذلك ، ولا لسواه بالبحث والنقد والتمحيص . . . وإنما نريد فقط أن نبذل محاولة للتعرّف على رأي الاسلام في الحكم ، وفي الحاكم . . ، ولنرى ، إن كان يلتقي مع أي من هذه النظريات المطروحة ، أو مع سواها مما عرفته الأمم . . . أم أن له أطروحة جديدة ومتميّزة في هذا المجال .

الحكم ضرورة فطرية

هـذا . . . ولأجل أن نقترب قليلاً من موضوع البحث، فإننا لابد أن نشير إلى : أن الاسلام يرى حتميّة وجود حاكم مهيمن، يعمل على فرض النظام، ومنع الفوضى، وهو في رأيه هذا منسجم مع الواقع، ومتوافق مع قضاء الفطرة، الذي لا يمكن إنكاره، ولا المماراة فيه.

فعن أمير المؤمنين عليه السلام :

« الامامة نظام الأمّة (١) ».

---

(١) غـرر الحكم المطبوع مع الترجمة الفارسية ج ١ ص ٣٦، ولكن في نهج البلاغة الحكمة رقم ٢٥٢ وفي غرر الحكم ج ٢ ص ٥٢٥ . . . الامانة، والامانات.

وعنه عليه السلام :

« لابد من إمارة ، ورزق للأمير . . . إلخ » (١) .

وعنه عليه السلام :

« لابد للناس من أمير ، بر ، أو فاجر ، يعمل في إمرته المؤمن ، ويستمتع فيها الكافر ، ويبلّغ الله فيه الأجل ويجمع به الفيء ، ويقاتل به العدو ، وتأمن به السبل ، ويؤخذ به للضعيف من القوي ، حتى يستريح بر ، ويستراح من فاجر » (٢) .

وعنه عليه الصلاة والسلام :

«أسد حطوم ، خير من سلطان ظلوم ، وسلطان ظلوم ،

---

(١) دعائم الاسلام ج ٢ ص ٥٣٨ .

(٢) نهج البلاغة ، بشرح عبده ، الخطبة رقم ٣٩ ، وراجع أنساب الاشراف ، بتحقيق المحمودى ج ٢ ص ٣٧٧ و ٣٥٢ وتأريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٢٠٩ ، والبحار ج ٧٥ ص ٣٥٨ وكنز العمال ج ١١ ص ٣٠٩ و ٢٨٦ و ج ٥ ص ٤٤٨ ورمز له بـ : ق وهب وعبدالرزاق ، وابن جرير ، وخشيش فى الاستقامة ونقله فى مصادر نهج البلاغة ج ١ ص ٤٤٠ عن قوت القلوب ج ١ ص ٥٣٠ وعن غيره .

خير من فتن تدوم (١) .

وعـن الامام الرضا عليه السلام ، وهـو يذكر علل جعـل أولى الأمر والأمر بطاعتهم :

« ومنها : أنّا لانجد فرقة من الفرق ، ولا ملّة من الملل ، بقوا وعاشوا إلا بقيم ورئيس لما لابد لهم منه في أمر الدين ، فلم يجز في حكمة الحكيم : أن يترك الخلق مما يعلم أنه لابد لهم منه ، ولا قوام لهم إلا به ، فيقاتلون بـه عدوهم ، ويقسمون بـه فيئهم ، ويقيمون بـه جمعتهم وجماعتهم ، ويمنع ظالمهم من مظلومهم » (٢) .

فانهم « عليهم الصلاة والسلام » إنما يخبرون بهذه الكلمات عـن حكم الفطـرة ، وقضاء الطبيعة والواقـع

(١) البحار ج ٧٥ ص ٣٥٩ عن كنز الفوائد للكراجكى وراجع : دستور معالم الحكم ص ١٧٠ ، وغرر الحكم ودرر الكلم ج ١ ص ٤٣٧ و ج ٢ ص ٧٨٤ .

(٢) عيون أخبار الرضا ج ٢ ص ١٠١ ، وعلل الشرايع ج ١ ص ٢٥٣ ط سنة ١٣٨٥ ، وتفسير نور الثقلين ج ١ ص ٤١٢ و ٤١٣ ، وراجع المكاسب للشيخ الانصارى ص ١٥٣ .

بالحاجة إلى حاكم ، وليسوا في مقام جعل شرعي هنا ، فان حكومة الفاجر مرفوضة في الاسلام جملة وتفصيلاً ، كما أن كلمات الامام الرضا « عليه السلام » ، وكذلك كلمات الامام علي « عليه الصلاة والسلام » التي يفضل فيها الأسد الحطوم على الوالي الغشوم تشير إلى ماذكرناه بشكل واضح .

وبعد هذا . . . فلا مجال للأصغاء لقول من يقول : إنه لاحاجة إلى حاكم ، ولا داعي إلى نظام ، فان ذلك قول لايستند إلى مايبرره ، لاعلى مستوى النظرية ، ولا على صعيد الواقع الخارجي . . . هذا كلّه بالنسبة إلى قضاء الاسلام والفطرة بضرورة وجود حاكم .

في مُقدّمات البحث

وبعد ماتقدم ، فاننا نقول : إن نظرة الاسلام لطبيعة الحكم الذي يفترض فيه أن يهيمن على مسيرة الأمّة نحو الهدف المنشود ، منسجمة تماماً مع الفطرة أيضاً ، بكل ما لهذه الكلمة من معنى ، وليست بعيدة عن إدراك الانسان ، ولا عن تصوراته وطموحاته ، ولأجل ذلك فان المراجعة إلى الفطرة تصير أمراً ضرورياً وحتمياً لمن يريد التعرف على رأي الاسلام في هذا المجال .

وقبل أن ندخل في بيان مانرمي إليه ، فاننا نشير إلى أنه لابد أولاً وقبل كل شيء من أن نتذكر :

(١) : إنه لابد أولاً من بذل المحاولة للتعرف على ذلك الهدف الأسمى ، الذي يوجه الاسلام مسيرة الأمّة إليه ، ويهتم في العمل في سبيل الوصول والحصول عليه .

(٢) : إنه لابد من التعرف على نظرة الاسلام للكون وللحياة ، وأنه هل يعتبر الدنيا هي كل شيء ؟ أم أن للحياة إمتداداً أبدياً ، وخلوداً وبقاءاً مستقبلياً يتجاوز حدود هذه الحياة ، إلى ماهو أوسع منها ، وأكمل ، وأتم ؟

(٣) : إنه على أساس طبيعة ذلك الهدف ، ووفق تلك النظرة للكون وللحياة تتحدد طبيعة النظام الذي يفترض فيه أن يهيمن على مسيرة الأمّة ، ويحكم كل حركاتها ومواقفها .

أمّا بالنسبة للأمر الأول : فاننا لا نتردد في التأكيد على أن الهدف هو إيصال هذا الانسان ، كفرد ، وكأمّة إلى السعادة التامّة والشاملة والحقيقية ، بكل ما لهذه الكلمة

من معنى ، هذه السعادة التى لاتنتهى بانتهاء حياته في هذه الدنيا . . . وإنما تمتدّ وتمتدّ عبر الأزمان والأحقاب لتكون سعادة دائمة ، وخالدة ، وأبدية .

وبالنسبة للأمر الثاني . . . فان الاسلام يعتبر الدنيا مرحلة إعداد وتهيّؤ للحياة الحقيقية ، حيث ينتقل الانسان منها الى مرحلة أخرى أكبر وأوسع ، تتجسّد فيها إنسانية الانسان ، ويعيش واقعه وأصالته بحيويّة وواقعية وعمق ، وذلك هو ماتؤكده الكثير من الآيات والنصوص القطعية ، وهو من بديهيات الاسلام الأولية ، بحيث لا يحتاج إلى إقامة البراهين ، ولا إلى إيراد الشواهد .

ومن هنا . . . فان الأمر الثالث يصبح أكثر وضوحاً من وجهة نظر إسلامية . . . حيث إنه يرى : أن النظام الذي يفترض فيه أن يهيمن على حياة الانسان ، وعلى علاقاته كلّها . . . لابد وأن يتجه بالانسان نحو ذلك الهدف الأسمى ، وأن يعتمد في صميم تشريعاته ربط الانسان بالله سبحانه ، ليعيش باستمرار في ظل الرعاية

الالهية ، ويستفيد ماأمكنه من عطاء التربية الربانية ، المتمثلة في الطاعة المطلقة له سبحانه وتعالى ، والاخلاص في عبادته .

« وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » (١) .

وبعد هذا . . . فان من الطبيعي أن تكون أطروحة الاسلام لنظام الحكم منسجمة مع نظرته للكون ، وللحياة ، وللانسان ، وأن يقيّم علاقات الانسان بالدنيا ، وبكل مايحيط به تقييماً صحيحاً ، يعطيها حجمها الطبيعي الذي ينسجم مع حجم الدور الذي يفترض فيها أن تؤديه في مسيرة الانسان في الحياة الباقية نحو هدفه الاسمى ، الذي يشدّه إليه بواسطة ربطه ، وكل مواقفه وأعماله بالله تعالى ، ومحض القربة له سبحانه .

---

(١) الذاريات / ٥٦ .

عناصر ضرورية

وطبيعي أن حكومة كهذه ـ بل كل حكومة ـ تحتاج من أجل تأمين ذلك إلى العناصر التالية :

(١) : الاحاطة بكل مامن شأنه أن يكفل تحقيق ذلك الهدف ، أويساعد على الوصول إليه .

ويدخل في ذلك : العلم بكل مايحيط بحياة المجتمع الذي يحكمه ـ صغيراً كان أو كبيراً ـ من ظروف وأحوال لها تأثير مباشر ، أو غير مباشر في تكامله وفي حركته .

(٢) : أن يأمن من الخطأ ، في مجال فهمه لحقيقة

الظروف والأحوال ، ومعرفته بما يصلح مما يفسد ، وكذلك في مجال التطبيق والتنفيذ . . . وأن يملك الحصانة الكافية للمنع من أي حيف ، أو تجن ، أو إستغلال ، إنطلاقاً من أغراض شخصية أو غيرها ، مما لا يعود بالنفع على أولئك الذين يفترض فيه أن يرعى شؤونهم ، ويشرف على مصالحهم .

(٣) : أن يملك الدافع الذي يضمن قوة الحركة واستمرارها في الاتجاه الصحيح ، والاستعداد لتحمّل المصاعب والمتاعب ، التي ربما تفرضها طبيعة المهمّة التي يفترض فيه أن يتحمل مسؤوليات الاضطلاع بها .

هذا كلّه . . . عدا عن الشرائط العامة التي ينبغي توفرها ـ ولو الحدّ الأدنى منها ـ في الشخصية القيادية ، حتى بالنسبة لمجتمع صغير قليل المؤونة ، محدود العدد . . . من قبيل العقل ، والشجاعة ، والقدرة ، وغير ذلك .

أوليات فطرية

إننا إذا لاحظنا الانسان (١) حينما يولد ، فيعيش مرحلة الطفولة ، حيث يكون غير قادر على تلبية حاجاته بنفسه ، أو غير قادر على اختيار الأصلح ـ فانه يكون خاضعاً لحكم وسلطان أبويه ، يدبران أمره ، ويشرفان على شؤونه ، ويوجهان كل حركاته وسكناته ، نحوما يريان أنه الأصلح له ، والأوفق بحياته الحاضرة ، وفي المستقبل ، حيث أنهما هما الأعرف بأحواله ، وبالظروف المحيطة به عادة .

(١) بل كل مولود ، حتى الحيوان .

بل إن الأسرة التي تكون أكثر سعادة، وأبعد عن الاضطرابات والمشاكل، هي تلك الأسرة التي يحكمها ويهيمن عليها، ويشرف على شؤونها شخص واحد وواحد فقط وطبيعي أن يكون هو الأب ولأنه هو الأقوى، والأجدر بتأمين احتياجاتها، ولاسيما الفرد الأضعف فيها، كما أنه هو الأقدر على حمايته مما يمكن أن يتعرض له من اعتداء من قبل الآخرين، أو حمايته من المتغيرات الطبيعية التي ربما يكون فيها شيء من القسوة، حتى في الحالات العادية على هذا الموجود الضعيف.

وأيضاً... فان الأب حينما يعمل حكومته على هذا المجتمع الصغير، فانما ينطلق في مواقفه وأحكامه وإجراءاته من روح العطف والحنان، ورعاية المصلحة، ماوجد إلى ذلك سبيلاً، ويهتم بشكل تلقائي وطبيعي بالحفاظ على الوجود المتنامي للأسرة، بحيث تتمكن من السير على طريق التكامل، والوصول إلى أهدافها المنشودة في المستقبل.

وبعبارة أخرى : لو فرضنا أسرة تتشكل من أب وأم واطفال ، فانها تسعى ـ طبيعياً ـ نحو تحقيق هدف ما في هذه الحياة ، وليكن هو الراحة ، والاطمينان ، والسكون والسعادة ، أو هو اعمار الكون ، أو فليكن الهدف هو كل ذلك ، أوسواه . . . وهذا الهدف يحتاج إلى حركة باتجاهه من أجل الوصول إليه ، ولا يمكن أن تكون حركة عشوائية لأن الحركة العشوائية لا توصل إلى هدف ، إلا في حساب الملايين من الاحتمالات ، ولا يمكن للعقلاء أن يبنوا حياتهم على أمر كهذا ، وعليه فلابد من نظام يحكم هذه الحركة ، وينظمها ، ويوجهها ، ويوازن بين رغبات هذا ، ورغبات ذاك ، وحركات هذا وسكنات ذاك ، ويحفظها من أن تصطدم مع حركات ومواقف الآخرين ، ومع سائر الموجودات الكونية المحيطة بها . . . ولو كان هذا النظام مما توصل إليه عقل الانسان ، وحكمته ، وتدبيره .

وهذا بطبيعة الحال يحتم وجود من يشرف على هذه الحركة ، وعلى تطبيق ذلك النظام عليها . . . ويكون

هـو المهيمن على المسيرة ، والمرجـع للفصل في أمورهـا ومشكلاتها ، والمعين لها للتغلّب على ما يواجهها من عقبات ، ويحميها من العوادى الطبيعية ، أو غير الطبيعية .

والأب هو الأليق والأجدر بالتصدى لمهمة كهـذه ، لأنه يملك قدرة تمكنه من ذلك من جهة ، كما أنه يملك الحكمة ، والتعقل ، و الاتزان ، بالاضافـة إلى قدر كاف من العاطفة التى من شأنها أن تحفظ مصالح هذه الاسرة، كما أنها تمثل ضمانة من الوقوع في الحيف والتعدي ، ومـن التساهـل والتفريـط ، أو اللامبالات بأمـورهـا ، ومشاكلها .

وهـكذا . . يتضح : أن الأب يملك عادة حداً مقبولاً من العناصر التى أشرنا إليها فيما سبق ، يساعده بشكل فعال في مجال تسييره لشؤون ذلك المجتمع الصغير،الذي يقع تحت سيطرته . . . حتى إذا فقد بعضها ، فان الحكم الشرعـي وحتى العقلاء يلغون حقه في الحكم والسيطرة على تلك الأسرة .

أمّا حينما يصير للأب أولاد كثيرون، ثم أولاد أولاد، فان قدرته على السيطرة على الأمور، بل وعلى إستيعاب كثير من الظروف والأحوال المؤثرة سلباً أو إيجاباً في مايقع في منطقة نفوذه، ويخضع لرعايته ـ هذه القدرة ـ ستضعف بالقياس إلى الأسرة الصغيرة، كما وستضعف العاطفة التي تمثل قوة الدفع والحركة، كلّما كثرت الفروع، وتشعبت وتعددت الوسائط النسبية، الأمر الذي يؤدي إلى إحداث وهن في قوة الربط التي تشدّه إليهم، وتشدّهم إليه . . . أو على الأقل إلى البعض منهم، حينما يجد في البعض الآخر مايغنيه عاطفياً، ونفسياً، أو حينما يجد في بعضهم صدوداً أو عقوقاً، يصرفه عن الاهتمام بشؤونه، ثم تقديم مصلحة غيره من إخوانه على مصلحته، كما يحدث في أحيان كثيرة، وبالتالي فان نوازعه الشخصية يمكن أن تطغى على كثير من مواقفه، وسيواجه كثيراً من القضايا بالوهن، والضعف، واللامبالات، حينما تنصرف إهتماماته إلى تقديم راحة نفسه على مصلحة كل أو بعض

من هم تحت تكفله ورعايته ـ كما نراه في المجتمعات الغربية اليوم ـ وليس ثمة أية ضمانات أخرى تمنع من حدوث ذلك، أو تقلل من أخطاره، وآثاره... وقد رأينا بعض الآباء لو صدر من ولده مخالفة ما فانه لا يكتفي بضربه لتأديبه، بل ويتعدى ذلك للتشفي منه في كثير من الأحيان.

وأمّا حينما تصير الأسرة في مستوى العشيرة، ثم حينما تصير العشيرة في مستوى بلد، فان ذلك الضعف سيزداد نسبياً، وسيصبح أكثر فعالية في إحداث الضعف والتخلخل في البنية الاجتماعية في منطقة نفوذه، وستجد المفاسد، التي تستتبع المصاعب والآلام الفرصة المناسبة للتسرب إلى حياة ذلك المجتمع، وتؤثر سلبياً على واقع أولئك الناس، ثم على مستقبلهم.

أمّا حينما تكون هيمنته، ومنطقة نفوذه في مستوى مقاطعة، أو دولة، فان هذا الضعف، وذلك الفساد سيصبح أكثر وضوحاً، وأبعد أثراً... مع أن ملاحظة حجم

منطقة النفوذ يعطي ضرورة مضاعفة قوة الدفع ، وزيادة القدرات الذاتية لديه لمواجهة الحاجات الكبيرة ، والمشكلات الكثيرة ، التي ربما تواجههم ، وكذلك تؤكد ضرورة تعميق وترسيخ الملكات النفسية التي تمثل حصانة أكبر عن الوقوع في الخطأ ، أو عن الحيف على الآخرين ، ثم من طغيان النوازع النفسية وغيرها عليه . . . هذا كلّه . . . فضلاً عن تأكد الحاجة لمزيد من الاطلاع والمعرفة فيما يرتبط بظروف وأحوال من يقعون داخل نطاق عمله ، ومنطقة حركته .

* * *

فطرية حكومة الأنبياء والأوصياء

ونحن إذا نظرنا إلى حكومة الأنبياء الذين يتحملون مهمة قيادة ومسيرة البشرية جمعاء، وكذلك أوصيائهم، فاننا نجدها لاتخرج عن هذا السنن الفطري، والصراط الطبيعي، ولكن مهمة الأنبياء أعظم، لأنها تمس حياة شعوب بأسرها، وحياة الأجيال التي ستأتي بعد... فينبغي أن يكون توفر تلك العناصر فيهم بنحو أو في وأتم، ولا سيما إذا كانت رسالتهم عالمية، ويريدون مواجهة الأمم كلّها على اختلافها بالحق... وهدايتها ورعايتها، وذلك بالقيام بعملية هدم وبناء شامله، للبنية

الاجتماعية، والنفسية، والفكرية، والسياسية، والاقتصادية، وغيرها.

ولأجل ذلك نجد: أن الأنبياء وأوصياءهم «عليهم الصلاة والسلام» ونخص بالذكر منهم هنا نبيّنا الأعظم، محمداً «صلّى الله عليه وآله» والأئمة من ولده «عليهم الصلاة والسلام» (١) قد وصلوا إلى درجة العصمة، فيما يرتبط بضمان أن يكون عملهم على وفق الحكمة، التي لابد وأن تهيمن على كل العلاقات والروابط، وأيضاً ضمان عدم وقوعهم في الخطأ، أو الحيف أو التعدي، أو التفريط في المهمة المناطة بهم «ـ وهو ماربما يقع فيه الأب أحياناً ـ» وذلك لأن كل خطأ، أو تعدّ، أو تفريط، مهما كان صغيراً، سيكون له من الاتساع والشمولية بحيث يستغرق العالم كلّه، وسيكون له من الامتداد مايجعله

(١) يفارق واحد، وهو أن الانبياء «عليهم الصلاة والسلام» يستقون معارفهم عن طريق الوحي، فيتصلون بالله سبحانه، عن طريق الملك، أما الائمة فانما يستقون معارفهم عن طريق الانبياء «عليهم السلام».

ينعكس على حياة الناس ، أمّة بعد أمّة ، وجيلاً بعد جيل. . . و . . . إلى ماشاءالله .

وإذا كان الأب قد لايكون مستوعباً لكل الظروف الموضوعية المحيطة بالأسرة ، فاننا نجد الأنبياء يملكون الوعي الكامل والشامل ، والمعرفة بما يصلح مما يفسد ، لأنهم يرتبطون بالغيب ، ويستمدون من الوحي الالهي في هذا المجال .

وبالنسبة لسائر القدرات الذاتية ، فانهم يملكون الكفاءات العالية ، والخصائص الفريدة والكافية لجعلهم قادرين على وعي كل الظروف والأحوال ، وعلى تحمل أعباء القيادة الهادية إلى طريق السعادة المنشود .

وبعد هذا . . . وبالنسبة لقوة الدفع واستمراريتها ، فان هذا النبي ، وذلك الامام يملك رصيداً هائلاً من الحب والعطف على الأمّة ، كل الامّة ، حتى على أولئك الذين يحاربونه ، ويحاولون القضاء عليه ، وعلى دعوته ، حتى

لقد كانت نفسه «ص» تذهب عليهم حسرات ، وان تأريخ الأنبياء والأئمة ، وماتحملوه من مصائب ومصاعب في سبيل هداية أممهم ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور لخير شاهد على مانقول ، وقد حكى لنا القرآن الكريم بعض ما لاقاه نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ولوط ، وغيرهم من الأنبياء من أممهم وشعوبهم ، أمّا نبينا محمد « صلّى الله عليه وآله وسلم » ، فقد واجه من المصاعب والمتاعب مالم يواجهه أي من الأنبياء قبله ، حتى لقد قال ـ حسب ماروي ـ :

« ما أوذي أحد ما أوذيت » (١) .

وقد بلغ نبينا الأكرم «ص» في حنانه وعطفه على الأمّة ، وحبه لها ، وتفانيه في سبيلها . . . الغاية ، وأوفى على النهاية ، حتى لقد قال تعالى في بيان ذلك ـ وهي من مواصفاته القيادية في الحقيقة ، وليست مواصفات

(١) كنوز الحقائق بهامش الجامع الصغير ج ٢ ص ٨٣ و ٨٢ ، والجامع الصغير ج ٢ ص ١٤٤ .

شخصية ـ قال :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم » (١) .

وقال تعالى :

« فلعلّك باخع (٢) نفسك على آثارهم ، إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » (٣) .

ويقول :

« فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، إن الله عليم بما يصنعون » (٤) .

وثمة آيات أخرى تذكر حرص النبي « ص » على

---

(١) التوبة / ١٢٨ .

(٢) البخوع : بلوغ الجهد ، وبخع نفسه : قتلها من وجد أو غيظ « أقرب الموارد ج ١ ص ٣٢ » .

(٣) الكهف / ٦ .

(٤) فاطر / ٨ .

هداية قومه ، لا مجال لاستقصائها (١) .

أمّا أمير المؤمنين « عليه الصلاة والسلام » ، فقد ملؤا قلبه قيحاً ، مع أن خلافتهم لم تكن تساوي عنده نعلاً بالية ، إلا أن يقيم حقاً ، أو يبطل باطلاً ... وكانت دنياهم أهون عنده من عفطة عنز على حسب تصريحاته ... وإنما كان يتحمل المشاق العسيرة ، والمتاعب الكبيرة من الناس ، من أجل الناس ، فهو معهم على حد قول الشاعر :

أريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مراد

* * *

(١) راجع على سبيل المثال : سورة النحل / ٣٧ ، وسورة يوسف / ١٠٣ .

أنا وعلي أبوا هذه الأمّة

وبعد كل ماتقدم . . . فاننا نفهم بعمق مايرمي اليه قوله « صلى الله عليه وآله » لعلي أمير المؤمنين « عليه الصلاة والسلام »:

« أنا و علي أبوا هذه الأمّة »(١) .

فهو المدبّر ، وهو المسيطر ، ولكن من منطلق

(١) تفسير البرهان ج ١ ص ٣٦٩ عن ابن شهرآشوب وعن الفائق للزمخشري ، وتفسير الميزان ج ٤ ص ٣٥٧ عنه وعن العياشي ، والبحار ج ١٦ ص ٩٥ و ج ٤٠ ص ٤٥ ، ومعاني الاخبار ص ٥٢ ، وعيون أخبار الرضا ج ٢ ص ٨٥ ، وعلل الشرايع ص ١٢٧ .

الحكمة التي تفرض نفسها على مواقفه ، وبدافع من العاطفة التي تجعله يبادر الى التضحية في سبيلهم ، ويتحمل كل أنواع التعب والعناء والألم والبلاء من أجلهم .

ونعرف كذلك مغزى الأوامر الالهية الكثيرة في القرآن الكريم ، وعلى لسان النبي «ص» والأئمة «ع» ببر هذين الوالدين وحبهما ، فعن الامام الصادق « عليه الصلاة والسلام » في قوله تعالى : « ووصينا الانسان بوالديه حسناً » (١) قال : الرسول « عليه الصلاة والسلام » أحد الوالدين ، فقال له محمد بن عجلان : فمن الآخر ؟ قال: علي (٢) .

وعن النبي « صلّى الله عليه وآله وسلّم » :

« حق علي بن أبي طالب على هذه الأمّة (وفي لفظ :

---

(١) العنكبوت / ٨ .

(٢) لسان الميزان ج ٢ ص ٤٠ .

على كل مسلم حق) كحق الوالد على ولده » (١) .

وبهذا المعنى نصوص كثيرة لامجال لايرادها فلتراجع في مظانها (٢) .

وبعد كل ماتقدم ، فاننا نشير إلى أن ماكان يلقاه الأنبياء والأوصياء من أذى ، ومن مصائب وبلايا ، في سبيل دعوتهم إلى الله سبحانه ، هو في الحقيقة من أقسى مايمكن أن يواجهه الانسان في حياته العاطفية ، بل هو أشد عليه من ضرب السيوف ، وورود الحتوف . . . إن أن من أشدّ الأمور وأصعبها على الانسان أن يكون هو يذوب حباً

(١) فرائد السمطين ج ١ ص ٣٩٧ ، ولسان الميزان ج ٤ ص ٣٩٩ ، وميزان الاعتدال ج ٣ ص ٣١٦ ، وأمالى الشيخ الطوسى ج ٢ ص ٢٧٧ ، والمناقب للخوارزمى ص ٢١٩ و ٢٣٠ ، ومناقب الامام على (عليه السلام) لابن المغازلى ص ٤٨ ، وترجمة الامام على (عليه السلام) لابن عساكر ، بتحقيق المحمودى ج ٢ ص ٢٧٢ و ٢٧١ ، ونقله المحمودى عن غاية المرام ص ٥٤٤ .

(٢) راجع على سبيل المثال : تفسير البرهان ج٣ ص٢٤٤ و ٢٤٥ و ٢٩٤ ، والبحار ج ٧٥ ص ٣٥٦ .

وحناناً ، ويبذل كل غال ونفيس ، ويكابد المكاره ، ويعاني الآلام من أجل حياة إنسان وإسعاده ثم يجد : أن ذلك الانسان بالذات يقتله الحقد عليه ، ويبذل كل مايملك من أجل التخلّص منه ، وإلحاق الأذى به ، ولوحتى بقتله، واستئصال شأفته ، وكل من يلوذ به ، ويرضى طريقته ، لالشيء إلا لأنه يريدأن يهبه الحياة والسعادة ، ويبعدعنه كل بلاء وشقاء . . . نعم . . . وهذا هو المحك الحقيقي للاخلاص والحب حيث لايكون ثمة أيّة مصلحة شخصية، أو منفعة مادية ، أو معنوية تعود إليه ، وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله :

« قل : لاتمنوا علي اسلامكم ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان » (١) .

---

(١) الحجرات/ ١٧ .

النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم

وبعد كل ماتقدم ، وبعد أن تأكد لدينا توفر العناصر الرئيسة الآنفة الذكر في الأنبياء وفي أوصيائهم، وبعد أن كانت محبتهم وعواطفهم تجاه أممهم هي الأقوى والأعمق من كل عاطفة ومحبة ، وبعد أن كانت ليست عواطف هوجاء، ولا أحاسيس غامضة ، وإنما هي عواطف صادقة وأصيلة ، تقوم على أساس الاحساس بالمسؤولية ، وإمتلاك الرؤية الواقعية الكاملة ، والشاملة المستندة إلى القدرات الذاتية الفريدة ، والى الوحي .

وكذلك بعد أن كانت هذه الرؤية مستندة إلى

التسديد الالهي ، وتمتلك العصمة عن الخطأ ، والسهو والنسيان ، وعن كل حيف أو تفريط ، كضمانة حقيقية وثابتة . . . إلى غير ذلك مما تقدم . . . ـ بعد كل ذلك ـ فان من الطبيعي أن يكون للنبي « صلّى الله عليه وآله وسلّم » وللامام « عليه السلام » الولاية ـ بمفهومها الأوسع والأدق ـ على الناس ، كل الناس .

قال تعالى :

« إنما وليكم الله ورسوله والمؤمنون ، الذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة وهم راكعون » (١) .

بل إن الانسان إذا كان في مجال قيمومته على نفسه غير مأمون عليها ، فضلاً عن أن يكون مأموناً على غيره ، إذ قد تطغي عليه نوازعه الذاتية ، وينساق وراء شهواته وغرائزه ، ومصالحه ، حينما تغمر العقل المشحون بالعاطفة ، وتحد من فاعليته ، أو تطغي العاطفة نفسها على العقل . . . كما أنه قد يخطيء في كثير من تقديراته ، لأنه لا يملك

(١) المائدة / ٥٥ .

الرؤية الواقعية للكثير من الأشياء ، لعدم إطلاعه على الغيب ، والوحي محجوب عنه ، إلى غير ذلك مما يمكن أن يتعرض له هذا الانسان ، الموجود الضعيف والمحدود ـ اذا كان كذلك ـ فان من الطبيعي أن يكون النبي « ص » أولى بالمؤمنين حتى من أنفسهم ، فضلاً عن أولويته بهم من آبائهم . . . وكل ذلك يفسر لنا قوله تعالى :

« النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم » (١) .

بل إن حصر الولاية بالله تعالى ، وبالنبي « ص » ، والامام « ع » في آية : « إنما وليكم الله ورسوله ، والذين آمنوا ، الذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة وهم راكعون » (٢) يعطينا : أن ولاية من ذكروا في هذه الآية الكريمة تلغي كل ولاية في قبالها ، لأنها هي الولاية الحقيقة والواقعية ، وكل ماعداها ، فانما هو منبثق عنها ، فلايكون له مكان إلا في الحدود التي لايكون له تعارض ولا تصادم معها .

---

(١) الاحزاب / ٦ .

(٢) المائدة / ٥٥ .

ومن خلال جميع ماتقدم ، وبملاحظة شعور الأمّة بأن هذه الحكومة والولاية إلهية ، فالله هو المبدأ وإليه المنتهى ، ومن خلال شعورهم بأنه يهبهم ـ بذلك ـ الحياة والكرامة والسعادة ـ من خلال ذلك كلّه ، وبملاحظته ـ يتأكد إرتباطهم به ، وانشدادهم إليه ، بعقولهم ، وقلوبهم وعواطفهم ، وبكل وجودهم ، ويكون الحب ، وتكون التضحية في سبيله ، وقد وردت نصوص قرآنية ، ونبوية ، وعن الأئمة ، تؤكد على هذا الحب لله ، ولرسوله ، وللأئمة « عليهم السلام » لامجال لايرادها هنا (١) .

(١) قد ذكرنا بعضاً من تلك النصوص في مقالنا : « الحب في التشريع الاسلامي » ، في كتابنا : « دراسات وبحوث في التأريخ والاسلام » ، أول الجزء الثاني ، فراجع .

ولاية الفقيه الجامع للشرائط

بقي أن نشير هنا : إلى أنه حينما لا يمكن للامام المعصوم أن يمارس دوره الكامل في قيادة الأمّة وهدايتها ورعايتها . . . بسبب عروض بعض الموانع القاهرة ، كما هو الحال بالنسبة لامامنا الحجة المنتظر « عجل الله تعالى فرجه ، وجعلنا من أنصاره وأعوانه ، والمستشهدين بين يديه » . . . وحيث لابد للأمة من قائد ورائد ، يحكم مسيرتها ، ويشرف على شؤونها ، وعلى تطبيق أحكام القانون فيها ، وحيث لابد وأن تناط هذه المهمة بواحد فقط من أفراد الأمّة نفسها ، لا أكثر ، إذ قد روي عن الامام

الصادق «عليه السلام» قوله : «مالكم والرياسات ! إنما للمسلمين رأس واحد» (١) .

كما أن «الشركة في الملك تؤدي إلى الاضطراب»، كما عن أمير المؤمنين علي «عليه السلام» (٢) .

فاننا نجد الاسلام في مجال اختياره لهذا الفرد منسجماً مع الفطرة أيضاً ، فنجده يختار الأعلم بالأطروحة الالهية ، التي يفترض فيه أن يعمل على تطبيقها على النحو الأفضل والأشمل ، والاعرف بواقع الأمّة وظروفها ، ومن يملك الحد الأعلى من القدرات والكفاءات ، التي تؤثر في المهمة التي يتصدى لانجازها ـ كما أن درجة العصمة وإن لم تكن متوفرة في غير المعصوم عادة ، لكن ملكة العدالة والتقوى تكون بمثابة الضمانة الطبيعية ، التي تكفل أن يكون كل مايصدر عنه يقع في الخط الصحيح ،

(١) اختيار معرفة الرجال ص ٢٩٣ ، وقصار الجمل ج ١ ص ٢٦٢ عن مستدرك الوسائل ج ٢ ص ٣٢٢ .

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم ، المطبوع مع الترجمة الفارسية ج ١ ص ٨٣ .

ووفق مصلحة الأمّة (١) . . . أضف إلى ذلك : أن إحساسه المتنامي بالمسؤولية الشرعية لايبقي له مجالاً للتراخي أو التفريط في أداء المهمة الموكولة إليه .

فالعناصر الآنفة الذكر متوفرة أيضاً في الولي الفقيه على النحو الذي يحفظ للأمّة سلامة المسيرة ، وتكاملها الطبيعي في ظل التربية الالهية .

(١) ويلاحظ أن العدالة ليست شرطاً فى من أعطى حق الاشراف على شؤون الاسرة وادارتها .

نصوص مأثورة

وقد أشير إلى بعض ماتقدم في ضمن النصوص التالية :

عن علي عليه السلام :

« يحتاج الامام إلى قلب عقول ، ولسان قؤول ، وجنان على إقامة الحق صؤول » (١) .

وعنه عليه السلام :

« اللهم لاينبغي أن يكون الوالي على الدماء ، والفروج ، والمغانم ، والأحكام ، ومعالم الحلال والحرام ،

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٨٧٣ .

وإمامة المسلمين (وأمور المؤمنين) : البخيل ، لأن نهمته في جمع الأموال ، ولا الجاهل ، فيدلّهم بجهله على الضلال، ولا الجافي ، فينفرهم بجفائه ولا الخائف ، فيتخذ قوماً دون قوم ، ولا المرتشي في الحكم ، فيذهب بالحقوق ، ولا المعطل للسنن ، فيؤدي إلى الفجور ، ولا الباغي فيدحض الحق ، ولا الفاسق ، فيشين الشرع » (١) .

وعن النبي « صلّى الله عليه وآله » :

« لاتصلح الامامة إلا لرجل فيه ثلاث خصال : ورع يحجزه عن معاصي الله ، وحلم يملك به غضبه ، وحسن الولاية على من يلي ، حتى يكون لهم كالوالد الرحيم»(٢).

وجاء في صحيحة عيص بن القاسم عن الصادق «عليه السلام»:

---

(١) تذكرة الخواص ص ١٢٠ و ١٢١ ، والبحار ج ٧٧ ص ٢٩٧ ، ودعائم الاسلام ج ٢ ص ٥٣١ ، ونهج البلاغة بشرح عبده ، الخطبة رقم ١٢٧ ج ٢ ص ١٩ .

(٢) اصول الكافي ج ١ ص ٣٣٦ باب مايجب من حق الامام على الرعية ، وحق الرعية على الامام .

«عليكم بتقوى الله وحده لاشريك له، وانظروا لأنفسكم، فوالله إن الرجل ليكون له الغنم فيها الراعي، فاذا وجد رجلاً هو أعلم بغنمه من الذي هو فيها، يخرجه ويجيىء بذلك الرجل الذي هو أعلم بغنمه من الذي كان فيها ... إلخ» (١).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام:

«إن أحق الناس بهذا الأمر أقواهم عليه وأعلمهم بأمر الله فيه» (٢) وثمة روايات أخرى فيما يرتبط بالمعرفة بالزمان وأهله لامجال لتتبعها.

---

(١) الكافي ج ٨ ص ٣٦٤، الوسائل ج ١١ ص ٢٥ كتاب الجهاد باب ١٣، والرواية طويلة، وذكر قسماً منها في ج ١١ ص ٣٨ عن علل الشرايع ص ١٩٢.

(٢) نهج البلاغة، بشرح عبده، الخطبة رقم ١٦٨ ج ٢ ص ١٠٤ و ١٠٥.

ونقول ايضاً :

كما ان ثمة نصوص كثيرة حول كون الأحق بالأمر هو الأعلم ، أو فقل : هو ذلك الرجل الذي يكون في المستوى الأعلى من العلم والمعرفة بأحكام الله تعالى (١) ، وهي وإن كانت بحسب والظاهر ناظرة إلى مواصفات الامام والخليفة بعد النبي « ص » ، ولكن كونها في مقام الردّ على خصوم أهل البيت « عليهم السلام » يعطي : أنها في مقام الاستدلال بحكم العقل والفطرة الانسانية ، كما هو

(١) راجع كتابنا : ولاية الفقيه في صحيحة عمر بن حنظلة ص ٥٣ و ص ٥٤ و ص ٧١-٧٣ للاطلاع على هذه الاحاديث ومصادرها .

ظاهر . . . كما أن من الطبيعي: أن يكون الأعلم ، والأعرف بزمانه ، والأقدر على الأمر هو الأقرب والأجدر بتحقيق الأهداف الالهية ، فيما يرتبط بتطبيق أحكام الاسلام ، وتنفيذ تعاليمه على صعيد الحكم . . . ومع وجود تلك الصفات بدرجات متفاوته في عدة أشخاص ، فلابد وأن تراعى مصلحة الامّة ، فتكون الولاية لمن يكون منهم أقدر على إدارة شؤونها ، وحفظ مصالحها .

* * *

في نهايات البحث

ولأجل كل ماتقدم ، فان ولاية الفقيه ، الجامع للشرائط الذي هو نائب الامام ، تشبه إلى حد كبير ولاية من ينوب عنه ، فيكون أولى من الأب ، وأحق بالتصرف منه ، فيما يتعلّق بولده ، فلو حكم الولي الفقيه على الولد بالذهاب للجهاد مثلاً ، فان منع الوالد له ـ والحالة هذه ـ لايكون مؤثراً ، بل ينفذ حكم الولي الفقيه ، دون حكم الوالد .

وما ذلك إلا لأن هذا الولي الفقيه أكثر إطلاعاً على ظروف ومصالح الأمّة ، وعلى الأحكام الشرعية التي

لابد وأن تهيمن على سلوكها من جهة ، كما أنه لايريد في حكمه هذا جلب مصلحة لنفسه ، ولا هو نتيجة إندفاع عاطفي ضيق الأفق ، وغير مسؤول ، كما قد يحدث لكثير من الآباء في احيان كثيرة .

إذن فحكومة الولي الفقيه كحكومة النبي والامام حكومة أبوية ، قاهرة ومفروضة ، ترتبط بالله سبحانه ، وتنتهي إليه ، وإن إحساسه بالمسؤولية الشرعية الملقاة على عاتقه ، وكون ولايته قد جاءت عن طريق الجعل الشرعي الالهي . . . ان ذلك من شأنه أن يعطي عمله قوة دفع أعظم، ويجعل الارتباط به اعمق واقوى، لأن طاعته طاعة الامام ثم النبي ، ثم الله سبحانه ، وكذلك الحال في عصيانه ، كما أن ملكة العدالة التي يتمتع بها تعتبر ضمانة حقيقية، تؤهله لأن يحتفظ بسلامة الخط ، وبرسالية الموقف ، وتؤكد على إرتباط الناس به ، وشدهم إليه ، وثقتهم به وبمواقفه ، حيث لا يبقى ثمة مجال لأن يراود نفوسهم أي شك أوريب في سلامة المواقف التي يتخذها ، أو الأوامر التي يصدرها .

وليكن ذلك كلّه . . . واحداً من الأدلّة على أن الاسلام دين الفطرة ، والحقيقة ، وعلى واقعيته في التعامل مع الامور .

وفقنا الله للسير على هدى الاسلام ، والحمد لله ، وصلاته وسلامه على عباده الذين اصطفى ، محمد وآله الطاهرين .

قسم المقدّسة

« جعفر مرتضى العاملى »

مصادر البحث

١ـ القرآن الكريم

٢ـ إختيار معرفة الرجال (رجال الكشي) للطوسي

٣ـ الامالي للطوسي

٤ـ أنساب الأشراف للبلاذري

٥ـ البحار للعلامة المجلسي

٦ـ البرهان (تفسير) للبحراني

٧ـ تأريخ اليعقوبي لابن واضح

٨ـ تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي

٩ـ ترجمة الامام علي «ع» لابن عساكر

١٠ـ الجامع الصغير للسيوطي

١١ـ دعائم الاسلام للقاضي النعمان

١٢ـ دستور معالم الحكم للقضاعي

١٣ـ علل الشرايع للشيخ الصدوق

١٤ـ عيون أخبار الرضا «ع»	للشيخ الصدوق
١٥ـ غرر الحكم ودرر الكلم	للآمدي
١٦ـ فرائد السمطين	للجويني
١٧ـ قصار الجمل	للمشكيني
١٨ـ الكافي	للكليني
١٩ـ كنز العمال	للمتقي الهندي
٢٠ـ كنوز الحقائق	للمناوي
٢١ـ لسان الميزان	للعسقلاني
٢٢ـ مستدرك الوسائل	للنوري
٢٣ـ مصادر نهج البلاغة	لعبدالزهراء الخطيب
٢٤ـ معاني الأخبار	للشيخ الصدوق
٢٥ـ المكاسب	للشيخ الأنصاري
٢٦ـ المناقب	للخوارزمي
٢٧ـ مناقب الامام علي «ع»	لابن المغازلي
٢٨ـ ميزان الاعتدال	للذهبي
٢٩ـ نهج البلاغة	جمع الرضي

٣٠ـ نور الثقلين (تفسير)	لابن جمعة الحويزي
٣١ـ وسائل الشيعة	للحر العاملي
٣٢ـ ولاية الفقيه في صحيحة عمر بن حنظلة	للمؤلف

المحتويات

المقـدمة	٣
بدايـة	٥
الحكم ضرورة فطرية	٨
في مقدمات البحث	١٢
عناصر ضرورية	١٦
أوليات فطرية	١٨
فطرية حكومة الأنبياء والأوصياء	٢٥
أنا وعلي أبوا هذه الامّة	٣١
النبي «ص» أولى بالمؤمنين من أنفسهم	٣٥
ولاية الفقيه الجامع للشرائط	٣٩
نصوص مأثورة	٤٢
ونقول أيضاً	٤٥
في نهايات البحث	٤٧
مصادر البحث	٥٢
المحتويات	٥٥